بعد انهيار الإمبّاطورية الرومانية في غرب أوروبا واجتياح البّابرة الجرمان غرب أوروبا تغير المجتمع الأوروبي تغيرا أس اس يا، كان له أثره الكبير على الحياة الاجتماعية والاقتص ادية والعس كرية والس ياس ية. ومن جراء الهجرات الجرمانية إلى جوف أوروبا أص بحت مدن أوروبا غير آمنة على نفس ها، ولذلك انتقل أعيان المدن إلى قص ورهم في الريف وأحاطوا أنفس هم بأتباعهم وأعوانهم، يضاف إلى ذلك تواجد بعض الأديرة التي كان رهبانها يزرعون الأرض ويش تغلون ببعض الص ناعات اليدوية. ومع عدم إمكان الاتص ال بين المدن والقرى س ع الأعيان إلى الاكتفاء الذاتي داخل القرية وبدأت الض ياع تص نع Theuderic العديد من البض ائع التي كانت تشتريها من المدينة، ودولة القوط الش رقيون في إيطاليا بقيادة ملكها ثيودريك م(على س بيل المثال نجد أن الملوك الميروفنجيين ومن بعدهم الملوك الكارولنجيين أخذوا يؤجرون أو يمنحون526-493(

قوادهم وموظفيهم مس احات من الأرض أص بحت شبه مستقلة، ومن هنا أقام هؤلاء الأعيان الذين يطلق عليهم البارونات بالإضافة إلى الأساقفة أو رؤساء الأديرة نظاما محليا في المناطقة الخاصة بهم، وقد تقبل الأهال هذا النظام عن طيب خاطر طالما أص بح هذا النظام هو الكفيل بحمايتهم مما يحيط بهم من أخطار. وقد واكب هذه العملية قيام الفلاحين ببناء منازلهم بالقرب من قص ر البارون الحصين أو الدير المنيع، ويجب ألا يغيب عنا أن هؤلاء الناس الذين خضعوا للسادة الإقطاعيين كانوا رجالاأحرارا لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم، وكان من عادة الس ادة الإقطاعيين أن يمنحوا أتباعهم قطعة من الأرض بعقد لفلاحتها ولهؤلاء السادة حق استرداد هذه الأرض متى شاءوا . وهكذا كان الإقطاع هو خضوع الفرد اقتصاديا وعسكريا إلى رجل أرفع منه منزلة مقابل الحماية العسكرية، والأحرار هم البارونات ورجال الدين والجنود النظاميين ومعظم التجار والصناع وأص حاب المهن، وأخيرا الفلاحين الذين يملكون أرضاً ولا يرتبطون بأي سيد إقطاعي إلا قليلا. وكان هؤلاء الأحرار من القلة اللاتينية تطلق على رقيق الأرض والعبيد ولكن هذا Servus بحيث لم يتجاوز عددهم ربع الأهال في غرب أوروبا. كانت كلمة أي العبد. أو من الص بيان الصغار Slave لتقابل رقيق الأرض وكلمة Serf اللفظ تطورمع مض ي الزمن وتحول إلى كلمة وكذلك البنات الذين يتم خطتهم من البلاد الإسلامية أو اليونان أو البلاد الممتدة على س واحل آس يا الغربية والبحر الأس ود وشمال إفريقيا. ثم دفع الجشع هؤلاء التجار إلى بيع آلاف الأطفال المسيحيين الذين كونوا حملة الأطفال في عام ١٢١٢ م إلى البلاد م(قد أعتق إثنين من604-590(Gregory1 الإس لامية في الش ام ومص ر وشمال إفريقيا. وإذا كان البابا جريجوري الأول عبيده وقال أن للناس جميعا الحق الطبيعي في الحرية، كما أنه حرم على العبيد أن يص بحوا رجال دين أو يتزوجوا من نس اء مس يحيات أحرار. ومفرد الأقنان)قن(وهو الرجل الفلاح الذي يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه أو يملكها له الس يد الإقطاعي، وكان هذا القن يمتلك هذه الأرض أو تؤجر له مدى الحياة مقابل أن يمنحه السيد الإقطاعي حمايته العسكرية، وفي نظير ذلك يؤدي له القن أج را س نويا من الغلال أو العمل أو المال. والقن مربوط بهذه الأرض ولا يملك حرية الانتقال منها، وإذا مات هذا القن فلا تنتقل قطعة الأرض إلى ورثته إلا بموافقة السيد الإقطاعي. وإذا كانت هذه الأسس الرئيسية التي تقام عليها العلاقة بين السيد الإقطاعي والقن فهناك روابط أخرى تربط القن بالس يد الإقطاعي وبالأرض الممنوحة له . لذلك فض ل القن البقاء في وس ط مجموعة وأرض مولد وترب فيها وعمل بها. فإن جماعات الأقنان عاش ت فيالأرض الممنوحة لهم أجيالا بعد أخرى دون طرد أو حرمان. والواقع إنه من الأفضل للسيد الإقطاعي الجديد أن يش تري الأرض وما عليها من الأقنان الذين أص لحوها وأفلحوها وبإمكانهم التعامل معها بكل سهولة. ويمكن القول على ض وء ما س بق أن علاقة القن بالس يد الإقطاعي كانت ذات ش قين: فهي تبعية اقتص ادية، ولكن هذا المفهوم تغير مع الزمن حيث أص بح من الجائز أن يكون هناك إرتباط شخصي فقط بين القن والسيد الإقطاعي دون أن يكون لدى القن أي قطعة من أرض الس يد الإقطاعي. وأص بح القن الذي يرتبط بالأرض منفصلا عن القن الذي يؤدي واجبات معينة للسيد الإقطاعي مثل الحراسة أو العمل في مخبز السيد الإقطاعي أو طاحونته أو غير ذلك من الأعمال المرتبطة بالزراعة. مع الأخذ في الاعتبار أن الحالة الجديدة لم تشمل كل الأقنان بل ظلت جهات كثيرة تسير طبقا للأوضاع القديمة من الجمود والظلم حتى بداية التاريخ الحديث. وحتى نتفهم الحالة الواقعية للأقنان فيجدر بنا أن نعدد الواجبات الإقطاعية التي كان على الأقنان أن يؤدوها للسيد الإقطاعي ومن أهم هذه الواجبات: وعلى القن أن يدفع كل عام جزءاً من غلاته وماش يته تص ل إلى حدود العش ر، وكان القن في هذه الأيام يقوم بالأعمال العامة مثل إقامة الجس ور أو تقطيع أش جار الغابات أو تجفيف المس تنقعات، ومن المس لم به إن على القن أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ويعصر نبيذه عند السيد الإقطاعي مقابل مبلغ محدد، وإذا اقتضى الأمر وكان للقن قضية فعليه أن يرفعها أمام محكمة السيد الإقطاعي مقابل رسوم معينة تختلف حسب نوع القض ية . ويلاحظ أنه لم يسمح للأقنان ببيع ما يفيض منهم إلا بعد ما يفرغ السيد

Summarized by © lakhasly.com

الإقطاعيمن بيع ما عنده بأس بوعين، وعلى القن أن يدفع غرامة معينة إذا أرس ل ابنه للمدرس ة أوليلتحق بالكنيسة لأن الضيعة سوف تخسر هذه القوة البشرية. ورغم هذا كله فقد ظل الأقنان حتى القرن الثالث عش ر الميلادي ينظرون إلى الس يد الإقطاعي نظرة إعجاب وربما نظرة الحب في بعض الأحيان باعتباره المدافع الأول عنهم ضد أخطار الزمان. وإذا ألقينا نظرة على الحياة العامة للفلاح نكون قد أوضحنا صورة كافية عن حياة الأقنان في تلك المرحلة، وبداية نقول أن الفلاح كان يسكن كوخا من الخشب يعلوه سقف كان من الخش ب غالباً، أما عن ملابس القن أو الفلاح فقد كان قميص ا من القماش أو جلد الحيوان وعليه س ترة من الص وف أو من الجلد وس روالا، وإنه يتحمل كل هذا من أجل حياته وحياة أس رته وحياة الس يد الإقطاعي والآخرين الذينيعيشون حوله. وعاش مع أقرانه في القرية حياتهم البس يطة يجتمعون في المناس بات وأيام الأعياد والأحاد في س احة القرية أو الكنيس ة. وعلينا أيض ا أن نعرف أنه كان أميا غير مثقف ليس لديه معرفة عن ش يء س وى الزراعة وأعمال القرية التي تكفل له الحياة التي اقتنع بها. وكان مهددا إما بحريق أو قحط أو مجاعة تأتي على كوخه أو حيواناته أو مزروعاته مثلا تعرضت فرنسا لقحط أهلك الزرع والنسل، وكانت ش خص ية العمدة من الأهمية داخل القرية فهو الذي ينس ق نش اط الفلاحين الزراعي، كما تخصص البعض في الأعمال اليدوية فنجد الحداد ودابغ الجلود والنجار الذي يصنع أثاث المنزل والأكواخ وصانع العربات والقصار والصباغ والبناء والسروجي وصانع الأحذية وغير ذلك من الأشياء التي يحتاجها المنزل القروي على فترات متباعدة. يترك أحدها للراحة ولا يزرع أما القس مان الآخران فقد كان أحدهما يزرع شعيرا أو شوفانا والآخر يزرع قمحا. وتولى موظفو القرية تسليم كل قطعة أو أكثر إلى أحد الفلاحين لزراعتها طبقا للخطة الموض وعة، وكان الفلاحون جميعا يتولون العملية الزراعية من حرث وبذر ورعاية وحصاد متعاونين قانعين بهذه الحياة. فإذا ما فرغ الفلاحون من هذه الأعمال أو ربما أثناءها كان عليهم أن يقوموا بقطع الأشجار ورعي الماشية، ثم تطور الأمر واس تخدموا الحص ان بعد ما ص نعت الأطواق الجلدية التي س اعدته على الجر دون مش قة حتى أنه كان يحرث في اليوم أض عاف ما يحرثه الثور. والألعاب الرياض ية مثل كرة القدم والمص ارعة والهوكي أو رفع الأثقال . وتزاور الفلاحون لبعض الوقت في الأمس يات تناولوا فيها الخمر والحديث عن متاعبهم أو مس راتهم، وبهذا الصراع والكد المتواصل أطعم هؤلاء الفلاحين أنفسهم وأوروبا كلها بما عليها من السادة الإقطاعيين والجنود العاملين ورجال الدين، ووس عوا نطاق الحض ارة بما اكتس بوه من معرفة أتت إليهم من المس لمين، ويض اف إلى هؤلاء الفلاحين جماعات الرهبان الذين أقاموا أديرتهم في أراض نائية ثم ما لبثوا أن زرعوا ما حولها ودافعوا عنها بالحرب في بعض الأوقات، ـ النمو والنضج الإقطاعي: اس تغرقت عملية النمو الإقطاعي حوال قرنين من الزمان هما القرنين التاس ع والعاش ر الميلادي وذلك وسط اضطرابات اجتماعية واسعة وأحداث سياسية صاخبة، وبمعنَ آخر أن الدولة الكارولنجية لم تتمكن من القض اء على فكرة المحلية وإنما ما أمكنها القيام به هو وقف بناء التطور نحو المحلية في مرحلة قص يرة ولعله في البداية. فإنه بعد وفاة شارلمان وما أعقبه من إهمال مستمر في الإدارة المركزية بالإضافة إلى اشتداد غارات أهل الشمال في الشمال والمسلمين في الجنوب على جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا كان كافيا بل ونتباريس بالدفاع Odoدافعا لتثبيت دعائم الحكم الإقطاعي في مراحل لاحقة وهي مراحل النضج الإقطاعي. ومن ذلك قيام أودو عن المدينة عندما هاجمها الش ماليون في عامي ٨٨٩ـ ٨٨٧ م، وفي هذه المرحلة أيض ا نجد امتلاك الأرض أص بح مصاحبا لحق امتلاك الحكم والس لطان فاندمجت الأرض بالسلطان، حتى صارت هذه التعهدات هي القاعدة التي س ارت عليها أمور الحكم ومتطلبات الأمن والحياة. ونش أ عص ر من الأرس تقراطية مالكة الأرض دام إلى عص ر الانقلاب الصناعي وإلى ما بعده في بعض المناطق الأوروبية. ولما كان هذا السيد المالك قد أطلق عليه أسماء مختلفة في أنحاء أوروبا منها وتعني المستشار في إنجلترا، وإذا كانت هناك واجبات تجاه الفلاحين للس يد الإقطاعي وهي ما س Earlوالإيرل Lordالسيد بق أن ذكرناها مثل اس تخدام معاص ر وافران الس يد المالك وغير ذلك فإن بعض الملاك كان رحيما وعامل رجاله معاملة طيبة ولم يثقل عليهم في الواجبات الملقاة على كاهلهم، وكان للمالك أيضا سلطات قضائية وعسكرية في أراضيه، ولذلك لم تكن هذه المحاكم ظالمة بالص ورة التي يمكن أن نتخيلها عن العص ور الوس طى، فإن الوثائق تش ير إلى لجوء رقيق الأرض لهذه المحاكم لانص افهم، حتى يمكن القول أن هذه المحاكم أعطت هؤلاء الأرقاء مزيدا من الحريات وإن كانت بطيئة حتى حررت في النهاية كل رقيق الأرض، وكان هذا المسكن محاط بسور تقع داخله الأسطبلاتوالمخازن والمخبز ومس اكن الخدم وكنيس ة ص غيرة وغير ذلك من لوازم الحياة. وكان الطابق الثاني هو الطابق الرئيس ي حيث تعقد محكمة الس يد الإقطاعي في القاعة الرئيس ة، ويلحق بهذه القاعة غرفة واحدة لجلوس الأس رة ونومها عندما يحين وقت النوم،

Summarized by © lakhasly.com